في مخاطبة الغني (١)

يا خادم القنية وأسير العادة وضيف النحلة ، ونزيل الرحلة (؟) ماأقنعك دَرُّها حتى عدوت عليها ، ولم ترض بما اقتصر عليه الذيب منها ، حتى دبغت جلدها ، وخرطت عظمها ، واغتزلت وبرها ، ورأيت أكبر الحظ لك ان يكون جوفك مقبرة لميت الحيوان وحظيرة لأسار أحيائها ، واتخذت منها أرجلاً تحملك ، وأيدياً تمنع عنك ، وقومة على سرفك ، وتتبعت فضائلها فاستخدمتها وأغفلت فضيلة نفسك ، وما ترتفع به عن جنسك ؟ وجعلت ما اجتمع لك من هذا نعمة تقتضي بها التعظيم وتستدعي معها التفضيل ، وحدثت نفسك بمقامها عليك ، وبيقائها لديك ، وإنما هي مثل أغصان أميلت من أشجارها وجمعت رؤوسها ليتظلل بها من تحتها فاذا زال رباطها رجع كل غصن منها الى شجرته أو كراكب بحر في هُدُوّه بماله وشمله وولده ، ألهاه سكونه عن حسن التحرز لاهتياجه ، وترفع على من عانى المسير في البر بما يلحقه من كلال السفر وتعب المسير ، حتى اذا عصفت به الريح كثر غرقاه وتغيرت صورة الترفه والأمن فيه .

يا ويحك لبس عليك استهتارك بما حصل لك مما بني عليه الزمان من قصر (مدة) المتعة حتى تهالكت في طلب ما خلفه الموتى ، ولم يثنك عنه سوء عهده لمن كان معه انه لا يصحبك مما وهبت له سعيك ومروءتك ، وأنضيت فيه ركابك ، واحتملت له انواع المكاره ، الا ما تقدمه من امساك أحوال المختلين وهداية المضللين وكف عادية المتسلطين وما كان سوى ذلك فيقيم في طعنك وينصدى لمن هو أقوى من يدك حتى يورده موردك ان تجاوز ما كف جوعتك ، وستر عورتك ، مضلة لك وفتنة لغيرك فلا تغرق فيما أرذل نفسك وحط منها وعوّدها مالا يطرد لها وليكن خوفك من ربك أزيد من خوفك من شماتة المخلوقين ، والتكشف عند الملائكة

(١) مقتبس من كتاب الصحف البوتانية المخطوط مع المعارضة على المخطوط النادر الذي تكلمنا عنه في أول هذا الجزء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المقربين أعظم عليك من التكشف عند المذنبين الداثرين واعلم ان كل يوم يمضي لك فانه مرحلة من طريقك الى معادك فلا يشغلك أملك عن أجلك ولا ما تخلفه عما تُقدِم عليه فان وفور الجِدَة بنقصان الفضيلة غبن ، والشرف بما لا يوثق بمقامه شقوة ، ان أفضل مالك ما كف الفاقة ، وقاد الى الموهبة التامة ، وأعانك على فرض الشريعة ، وليس ينقص بها في الأرض شيء إلا زاده ذلك في ملكوت السماوات اضعافه .

يا أيها المفتون بماله ، والمؤثر له على دينه ، ما أنصفك مالك قد ساق اليك الجَوَرة ورماك بالمتسلطين ، وخذلك في شدائدك ، وتخلف عنك في ظعنك ، وصار مفسدة لمن خلفته له إن أظهر نصرته [1] شجى قلوب المختلين ، وبعث عليه عداوة المتكالبين ، وصال به على المتجملين وأساء به جوار الصالحين ، واحتاج معه الى معاشرة الشرار ومجانبة الخيار [2] وإن أخفاه اضطر الى ستره بالحنث في اليمين وفرط التباريح [3] وشكوى ربه في الموضع الذي أوجب عليه به شكره ومنع المستحقين منه بقية عليه ، يا عاشق الصورة المسترقة له انما هي زهرة بدت شغفك ظاهرها فحرّك منك سكر الشهوة ، تماسك قليلاً ففي باطنها برؤك وشفاؤك من وصبك انك ان صبرت عنها رأيت تغيرها فاستحالت وانت مقيم لم تستحل وان انفيت اليها سبقتها بالتغير ونفضت عنها بسوء التحير .

يا من تأنق في طعامه ولم يقف على مقدار غناه إن مُوافقك منه قليل وهو يتصدى لك تصدّي العدوّ الملق الذي يخادعك عن نفسه حتى تزدرده ، فاذا جاوز لهواتك اعجز قدرتك وساء تحكمه عليك فان اجتمع عليك فيه الإثم والضرر عظم خسرانك به .

يا من جمع إخوانه على شراب طابت به انفسهم ، واتفق له ميلهم واخلاصهم ، انكم ساورتم آفة من الآفات الموبقة ، أدخلتموها بينكم وبين عقولكم فقهقرت بكم من أعلا الاسنان الى انقصها بنقلكم من الشيخوخة الى الاكتهال ، ومن الاكتهال الى الشباب ، ومن الشباب الى الصبي في يوم واحد [ان موداتكم] مدخولة ، ونفوسكم مرذولة ، وانتم الى الارتكاس اقرب منكم الى الايناس .

(١) نصرته . (٢) الأخيار . (٣) الفضائل في التباريح للمبارين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا من يرفل في اثوابه ويروقه مارقّ منها وحسن صبغه وانتظمت نقوشه قد زُينت البهائم والأطيار بأحسن مما شغفك منها استملي صَباغ ملابسك ولم تُكلف به كلفك ولا عانت له ما عانيت من بياع دينك بدنياك [1] وإنما الفضل في حسن الصبغة [2] للصابغ وليس للمستعمل ، ويحك تدبر ما غاليت به واستدعيت حسد الحاسد فيه من الآلات والأمتعة هل هي إلا اوصاب ارتهن الناس بها ، وانما مقامها مقام عكازة المكفوف ومحفة المنقرس ، إلا ان طبيعة هذا العالم المرذول حسنت ظواهرها وكثرت حليها لتستر بها زمانة المترفين ، ويذهل ذوو الفاقة عما هم فيه ، متنعمين فيه بما يروقهم ، أبن لي هل يتحمل عنك الأعباء فضة سرجك او ترصيع محفتك ، او يزيد في قطع مسافتك ما فيه من كثرة الحلية او يدفع عنك البرد اصباغ ثيابك كل هذه اشياء حسنت لفاقة وقعت فصيرتها من اكبر ما باهيت به ان فرط الجدة مثل الشحم الذي حدث عند عجز طبيعة البدن عن حسن الهضم فصار فتنة للمهزولين يتمنونه على اضعافه قواهم ومع ثقله عليهم ولو لم يكن في حسن الملبس وفراهة المركب الا اعتقاد صاحبها ان ظاهره عند اكثر الناس فضيلة [3] فيه لكان منه ما يضره .

يا حسن الهيئة خَفِ الله من كسوف بال المختلين من ابناء النعمة وانكسار قلوبهم ، واعلم انك قاسمتهم جَلب الدنيا شرّ قسمة ، ولولاك مااستعمل الناس اكثر الرذائل لأنه لا يصل الى زيك من ضعفت حاله إلا بتوغل رذائل مجحفة بدينه ووزنه ، ولولاك سقطت كلفته وظهرت فضيلته .

يا فاشي النعمة تثبت في امرك ولا تقطع ضريبة إن باريك احبك بما افضى به اليك ، واحذر ان تكون ذلك عن بغضة لك وانحراف عنك ، واعلم ان محبتك في النعمة للفقراء تدلّ على محبة من انت على يسارك فقير اليه ، يا ايها المغرور بما خُوّل تجرد عن جسمك طوعاً قبل ان تتجرد منه كرهاً ، فان الطوع انابة والكره عقوبة ، وليس يحمل عنك شيئاً من ثقلك والى الله عز وجل ما عُقدت عليه السرائر وثبت في الضمائر .

(١) ودنياك . (٢) الصنعة الصانع . (٣) خ . فضيلة يستغني بها عن ظهور فضيلة فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net